

غزوة الفراءة

النهاية قد تبرر الوسيلة مادام هناك ما يبرر النهاية

■ علي حسين

| ٧ |

صراع الثقافات بين البحارة وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة، فإنه انما يضع شخصياته في صراع مع الذات وصراع مع الإنسان. ثم يدفعها إلى التأمل في الإنسان والوجود والإيمان والخير والشر.

ما ذاك الرجل المضحج بالدم
مكثت لشكسبير
إن البحث عن الثأر وانتظار
المصير المجهول التي اتسمت
بها حكاية مويي ديك، نجدها
قريبة الشبه بمسرحية شكسبير
الشهيرة مكثت حيث استعان
هرمان ملفل بالتكنيك المسرحي
الشكسبيرى. واستخدم الرموز
والاستعارات بكثافة، وعرضها
بأسلوب يشد القارئ ويتركه في
حالة تأمل عميق.

القانون الخفي الذي يحكم رواية
ملفل هو القانون نفسه الذي
يحكم مسرحيات شكسبير. يتنبأ
الباسي للقبطان أهاب إن القنب
قائلة، يفسر أهاب النبوءة خطأ:
يقول إن القنب يعني انه سيموت
مشنوقاً، فيزداد جراً في عرض
البحر. لكنه يموت بحبل الرحم
الذي يلف على عنقه بينما يقذف
النصل في جسم مويي ديك.
يحدث الأمر نفسه مع مكث؟
تنبأ العرافات الثلاث إنه لن
يقتل إلا حين تتحرك الغابات،
فلا يتخيل في جنونه لحظة أن
جينسا موها بالشجر قد يزحف
على قلعة مثل غاية تتحرك!

يحضر "مكبث" في "مويي
ديك" أكثر من مرة. هناك مشهد
يكاد فيه أحد الضباط أن يقتل
أهـاب. ذلك يذكرنا بمكبث حين
يقدم على قتل الملك. لكن الضابط
يتراجع إذ يسمع أهـاب يدمم
في الخمام اسم الصوت مويي
ديك الذي النهه ساهه عند ساحل
اليابان حيث ما زال يطوف في
مناماته.

لعل المقارنة بين شخصيتي أهـاب
وماكبث، تكشف لنا ما يدور من
الصراعات بين أهـاب النفس
البشرية ونوازع الثأر. في
مويي ديك يدور الصراع داخل
نفس البحار أهـاب ما يخلق
لديه ذلك التوتر والتردد، فيما
نجد إن ما يحرك ماكبث ليس
ترده أو أية صراعات داخلية.
ما يحركه هو نزعة الشر التي
إذ تدفع الإنسان إلى القتل وإلى
التعطش إلى الدم.
إذ يقول ماكبث: "لقد خطوت في
الدم بعيداً، فحتى لو لم أخض
المزيد لكان النكوص مرهقاً كما
المضي". ونجد أهـاب يقول
في مويي ديك: "أنا أت اليك
بالتشمس، ضعضوا النير فوق
عربة مرفدة، ها أنا اسوق
البحر".

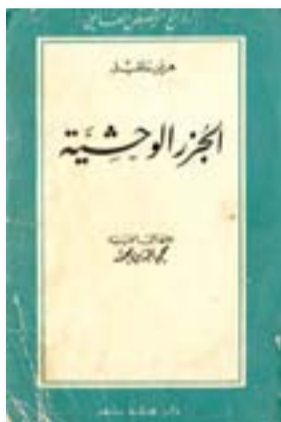
لم يعد في إمكان ماكبث أن
يتراجع. ليس لأن الأقدار
فرضت ذلك عليه، بل لأن تلك هي
شيمة الرجال وأهـاب لا يفوته
أن يقول لبحارة سفينته انه لن
يجرؤ على التراجع في مواجهة
الحوت الابيض.
يكتب سومرست موم: "يمكن
قراءة مويي ديك باهتمام بالغ
، دون النظر الى ما تحمله
أو مالاتحملة من مجازات،
ولااستطيع أن أكرر مرات
وسرات ان رواية مويي ديك
لاتقرأ للتعليم والتربية، ولكن
للمتعة والتسلية العقلية، واذا
وجدت انك لاحتصل منها على
هذه المتعة، فالاجدر بك الا
تقرأها على الإطلاق". ترى هل
كان برنادشو على حق حين قال
ذات يوم: "منذ أن تعلم الإنسان
الكتابة، لم يكتب مثل هذه
الرواية".



هرمان ملفل

إنه سرعان ما يرتاح له حين
يراه طيباً ومرحاً. يتفق معه
على السفر إلى نانتوكيت، مركز
تجارة الحيتان، للبحث عن
عمل. وهناك يوقع الاثنان على
عقدين بالعمل في السفينة بيكود
التي يقودها القبطان الغامض
والشهير أهـاب.
تبحر السفينة صباح يوم عيد
الميلاد، ويشعر إسماعيل بالقلق،
عندما يشاهد قبل الإبحار بوقت
قصير، قارباً يقف إلى جانب
السفينة ويصعد منه رجال لم
يستطع تمييزهم بسبب الضباب
ثم لا يظهر أثر لهم، يتعرف
الصيادون والبحارة على الكابتن
الأول، ستارباك. والثاني:
ستاب... والثالث: فلاسك. لكن
القبطان أهـاب لا يظهر للتعارف!
وعندما تدخل السفينة المياه
الحارة، يظهر أهـاب ويجمع
البحارة ويحتمهم بخطاب مثير،
على تحقيق هدف الرحلة، وهو
اصطياد الحوت الأبيض: مويي
ديك، لأنه برأيه، الشر المتجسد
ويجب تخليص الناس من شره.
تدور السفينة بيكود حول
أفريقيا وتتخلل مياه المحيط
الهادي وتصادف سفناً أخرى
لصياد الحيتان، فيستفسر أهـاب
بالاستمرار عن مويي ديك. ويهنيه
العراف غابريل في السفينة
جيرا بوم عن مطاردة مويي ديك.
ويجزره من الموت الذي ينتظر
كل من يحاول قتله.

بعدها نقابل بيكود سفينة صيد
الحيتان الإنكليزية صموئيل
اندرباي، ويخبر قبطانها بومر
أهـاب بأنه شاهد مويي ديك
وحاول اصطياده فحسر ذراع
يده اليمنى... بعد ذلك تقرب
بيكود من خط الاستواء وتقابل
السفينتين راشيل وديلايت،
والاثنان واجهتا مويي ديك.
أخيراً يلج أهـاب الحوت، فتنتزل
قوارب الصيد وترميه بالرامح.
يصيبه بعضها، لكن الحوت لا
يستسلم، تستمر المعركة ثلاثة
أيام. وعندما تأتي اللحظة
المناسبة لرميه أهـاب بالرمح
المعديت، يلف حبل الرمح حول
رقبته ويجرّه إلى الموت. ويحاول
ستارباك إنقاذ بقية الصيادين.
وعرض مويي ديك بالسفينة،
ويحدث فجوة فيها، فتغرق
وتغرق معها بقية القوارب.
يدوت الجميع ما عدا إسماعيل.
هكذا يذهب القارئ في رحلة
استكشاف للنفس البشرية.
فالسفينة بيكود تبحر في أعماق
المحيط، ونحن القراء نبحر في
أعماق أبطالها، وإن يقدم لنا ملفل



وفي البيت كنت أنزوي جانباً
، لقد وقعت في حب الرواية ،
وعشت أياماً وأنا أقرأ عن اناس
يعيشون في مكان آخر و زمن
بعيد .
"سترون أيها القراء، إن هذا
الحفار النقاب، إن تلك الأرضة
النفاذة التي اسميها مساعد
الخازن المساعد، قد تغلغل
في أقبية المكتبات وسرايبها
الطويلة، ولتلقط الاشارات
المتناثرة الى الحيتان ايبان
وجودها، من كتب دينية أو
دنيوية. لذلك ليس عليكم أن
تأخذوا هذا الخليط من الأقوال
وتعدوه في جميع الاحوال
، واصلت قراءة المزيد من
الصفحات، وكنت أتلهف لمعرفة
ماذا سيحل لأهـاب وسفينته وابن
ستنتهي رحلة البحث عن الحوت
الذي يريد أهـاب الثأر منه، وماذا
سي فعل البحار المتجول إسماعيل

نجيب محفوظ: "هناك أعمال
لا يتذكره أحد. فقد تطلب الأمر
أكثر من قرن لكي تأخذ الرواية
مكانتها الحقيقية وتصيح واحدة
من أهم كلاسيكيات الادب العالمي
وليعاد نشرها في طبعات كثيرة
وتترجم إلى أكثر من ٦٠ لغة .
تبدأ رواية مويي ديك بـ فصل
في الاشنقاق، وهي افتتاحية
منمينة شاعت كأنها قول مأثور.
بخيرنا ملفل إنها من إعداد
معلم مسلول، ونتبين إن المؤلف
يحاول ان يثير القارئ منذ
الصفحات الاولى.



أمبرتو إيكو

بعدها نتعرف على البحار
إسماعيل، الذي يريد أن
يجرب حظّه في إحدى سفن
صيد الحيتان. لذلك يسافر
من مانهاتن في نيويورك إلى
ماساشوسيتس، ويصل في
الليل إلى فندق في نيوبدфорд.
لكنه لا يجد سريراً فيضطر إلى
النوم في سرير مشترك مع رجل
غريب.
ينخر إسماعيل من ذلك الرجل
الفظ، الذي يغطي الوشم
جسمه، واسمه كيكيج، ويعمل
صياداً للحيتان بالرمح. غير

الفضيلة، وإذا كان الشخص
يجب أن يعلن انه لا يمكن ان
يلم بكل جوانب الحقيقة وانه
يستحيل أن يحيط بكل جوانب
العلم، فإن الفضيلة تشير إلى
وعى الانسان، ومن ثم يتوجب
عليه أن يسلك درب البحث
المتواصل عن المعرفة، وهذا هو
جوهر الفضيلة: "أن الفضيلة
ما هي إلا دعوى دائبة لإعمال
العقل.
كان سقراط يقول: "لا أعرف
سوى شيء واحد وهو أنني لا
أعرف شيئاً". فالفلسفة لا تتقدم
إلا عن طريق تبني منهج الشك
والبحث الدائم.

أنها الكتاب إنك تكذب،
الحق أيتها الكتب أنه عليك
أن تعري حذك، أنت تعطينا
الكلمات والحقائق العارية.
ولكن، نحن نملؤها بالأفكار.
هرمان ملفل
كيف أصبحت كاتباً ؟ يجيب
إليام فوكنر على هذا السؤال
بعبارة قصيرة : عندما قرأت
مويي ديك.

كان فوكنر في السابعة
والعشرين من عمره عام ١٩٢٤
ويمارس عدداً من الأعمال من
أجل توفير قليل من المال ، وحين
قرر أن يكتب ذات يوم رواية ،
عرضها على صديقه الروائي
شيرود اندرسن ، وبعد ثلاثة
أسابيع اخبره اندرسن انه
سيعقد معه صفقة تجارية
وسيمنحه اربعمائة دولار عن كل
رواية يكتبها . يستغرب فوكنر
من صديقه الذي سيمنحه كل
هذه الاموال لجرد انه سيجلس
اربع ساعات في اليوم وراء الآلة
الكتابة.

لكنه بعد نشر روايته الثانية
البعوض يدرك إن المال لوحد
لايصنع كاتباً يردد فوكنر دائماً
"إن مويي ديك هي الرواية
التي كان يتمنى أن يكون كاتبها
ويصرح : " إن نهاية أهـاب –
الشخصية الرئيسية في مويي
ديك – صارت نوعاً من الجلجلة
(مناراً للاحزان) بالنسبة لقب
غارقي الحطام وعاجز عن
الحركة والتحول"

في الخامسة عشرة من عمري
قرأت مويي ديك للمرة الاولى
بنسخة صغيرة صادرة عن
سلسلة كتابي، وبين عملي في
المكتبة ونهايي الى المدرسة
واصلت قراءة المزيد من
الصفحات، وكنت أتلهف لمعرفة
ماذا سيحل لأهـاب وسفينته وابن
ستنتهي رحلة البحث عن الحوت
الذي يريد أهـاب الثأر منه، وماذا
سي فعل البحار المتجول إسماعيل

الطريقة التي يعامل بها البسطاء
"..ويستخدم كارنيجي أمثلة
من حياة مفكرين وفلاسفة كانوا
يتصرفون بالطريقة التي يجب
أن يتصرف بها الانسان ، لقد
صرح وليم جيبس ذات يوم بان
"أعقق مبدأ للطبيعة البشرية هي
الأخريين ، ويحاول كارنيجي
الاستفادة من أسلوب سقراط
في توجيه الأسئلة واستخراج
المعرفة منها ، فقد كان سقراط
يحاول أن يقدم لمستعبيه طريقة
بسيطة تمكنهم من تمييز ما هو
صحيح بانفسهم ، كان سقراط
يصر أن بإمكان أي شخص
يملك عقلاً فضولياً أو سعي إلى
التدقيق في المعتقدات السائدة
أن يبدأ محادثة مع شخص آخر
بيني وبين نفسي : هل يمكن
يصل إلى فكرة خلاقة .. ويخبرنا
ديل كارنيجي إنه من الممكن
التوصل إلى تفاهم مع الآخرين
دون الإغراق في التلغسف .

كان من عادة سقراط ان يبدأ
اسئلته بالافصاح عن جهلة
العميق بالموضوع ، حتى يجذب
الأخر إلى حلبة للمناقشة ،
ويحول بصره إلى الصعوبة
الحقيقية في الموضوع ثم يدخل
إلى عمق الموضوع ، وكذا كان
يشجع الآخرين على سلوك درب
الفلسفة دون حاجة إلى كرسي
المعلم ، ومن دون أن يعطي
النصائح والأوامر ، فقد كانت
براعته تتتمثل في قدرته على ان
يجعل المحاور يصل بنفسه إلى .. وقد

اكتشفت أنا بعد سنوات إن بعض
الكتب أعادت تشكيل حياتي
بصورة أفضل .. ويخبرنا إيكو



ديل كارنيجي

يقدم أمبرتو إيكو نصيحة للكتاب :
" عليك أن تشكل القارئ الذي تريده لكل قصة تكتبها" .. وقد اكتشفت
أنا بعد سنوات إن بعض الكتب أعادت تشكيل حياتي بصورة أفضل .. ويخبرنا إيكو انه في صباه اطلع على
بعض كتب ديل كارنيجي ورغم انه وجدها بسيطة وساذجة أحيانا ، إلا انها ألهمته بأفكار كثيرة خصوصاً
ان مؤلفها استطاع ان يقوم بسياحة جميلة في أفكار الفلاسفة الاخلاقيين .

بحثت عن الطمانينة في
كل مكان، فلم أجدها إلا
بالجلوس في ركن منزوي وفي
يدي كتاب .
توماس دي كيمييس
مثل كثير من الناس كانت هناك
كتب أدين لها بالفضل ، لأنها
غيرت مسار حياتي ، عندما
كنت في الثالثة عشرة من عمري
أتسمت طبيعتي بالخبيل ، وكنت
أعاني من صعوبة التعرف
على أصدقاء جدد . وناذراً ما
أتحدث مع أحد ، ولا أفعل ذلك
إلا بصعوبة ، وتشاء الصدفة
أن يقع بيدي كتاب صغير
الحجم مطبوع على ورق أسمر
مثل معظم الكتب التي تسمى
شعبية " عنوانه " كيف تكسب
الأصدقاء وتؤثر في الناس "
للأميركي ديل كارنيجي ، في
تلك الأيام كان الكتاب يعد الأكثر
مبيعاً ، حتى أن العديد من دور
النشر تعيد طباعته باستمرار ،
وكنت وأنا الصبي الصغير أسأل
بيني وبين نفسي : هل يمكن
لكتاب أن يجعل لك الكثير من
الأصدقاء ؟ وحين سألت قربي
صاحب المكتبة ذات يوم عن
الكتاب ، قال لي بلهجة ساخرة :
هذه كتب بلا منفعة ، هدفها المال
، لم أقتنع بالحجة التي سألها ،
كفكيف يمكن أن أقاوم كتاباً يمد
لي الطريق لأن يصبح لي أصدقاء
وأثر فيهم .

كانت أول نصيحة تعلمتها من
مؤلف الكتاب " ديل كارنيجي
" إنني اشتريت دفتر ملاحظات
لأسجل به ما أشاهده كل يوم وما
يعر بي من مواقف وما أقرأه في
الكتب ، إذ يخبرنا كارنيجي انه
لكي تعيش حياتك بشكل حقيقي
عليك أن تهتم بالآخرين . ينبغي
أن تصغي اليهم وأن تكون سخياً
في محبتك لهم . ويطلب منا أن
نكون صادقين . نقرأ في سيرة

ديل كارنيجي إنه ابن لمزارع
فقير ، وكانت أمه تطمح أن يصبح
إبنها كاهناً . كان اسمه الحقيقي
ديل كارناجوي ، لكنه غير نطق
اسمه : " كنت أريد تحسين
حظوظي في الحياة " عمل وهو
طالب كلية بائعاً جولاً ، وكان
يقطع المسافات الطويلة على
قدميه ليبيع الصابون ومنظفات
المنازل ، وبعد أن أكمل كليته قرر
أن يدرس الفنون الدرامية لكي
يصبح ممثلاً ، إلا ان مسيرته
الفنية انتهت في دور صغير
بمسرحية لاقت فشلاً كبيراً ،
بعدها عمل بائعاً للسيارات
المستعملة . وفي هذا الوقت
قرر أن يكتب عن الطريقة المثلى
لكسب ود الناس ، فاستأجر
غرفة صغيرة لإقامة دورات عن
كيفية التأثير في الآخرين وكان
يردد مقولة الفيلسوف الأميركي
أيمرسون : " أفعل الشيء الذي
تحاف أن تفعله ، وسيصبح
موت الخوف عندئذ أمراً مؤكداً
بصورة مطلقة " . يبدأ كتاب
كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر
في الناس ، بفصل طريف ومثير
اسمه " إذا اردت جمع العسل
لاتبدأ بحرق خلايا النحل "
وهذه الفكرة يرجعها كارنيجي
إلى الرئيس الأميركي بنيامين
فرانكلين الذي قال لمواطنيه في
أحدى خطبه : " عزمت على أن
لا أتكلم بالسوء عن أي إنسان
مهما كان " ، ومثلما يخبرنا
ديل كارنيجي إن فكرة فولتير
كانت تتلخص في أن " أي أب له
يمكن أن ينتقد ويدين ويشكو .
لكن لكي يكون المرء متفهماً ، فإن
الأمر يقتضي شخصية متسامحة
قوية وضبطاً للنفس " ويتبع
هذه الفكرة بصفحات نابضة
بالحيوية تعود إلى الفيلسوف
البريطاني توماس كارليل : " إن
الرجل العظيم يظهر عظلمته في



ديل كارنيجي

يقدم أمبرتو إيكو نصيحة للكتاب :
" عليك أن تشكل القارئ الذي تريده لكل قصة تكتبها" .. وقد اكتشفت
أنا بعد سنوات إن بعض الكتب أعادت تشكيل حياتي بصورة أفضل .. ويخبرنا إيكو انه في صباه اطلع على
بعض كتب ديل كارنيجي ورغم انه وجدها بسيطة وساذجة أحيانا ، إلا انها ألهمته بأفكار كثيرة خصوصاً
ان مؤلفها استطاع ان يقوم بسياحة جميلة في أفكار الفلاسفة الاخلاقيين .